٣- جَوْلات مَدرَسيَّة

مَـا أجـملَ الميـدانَ! ومَـا أبـهَى الصـورَ التي يراهَا المسـؤولُ وهُوَ يتـجـولُ بـينَ مُـخْـتَلف المدارسِ، سَواءً في وطنِه، أو حتَّى خارجَه!

إنَّ الزائرَ يشـاهدُ المُنـتجَ وهو يُعَـدُّ، ويُبـصـرُ صُنَّاعَ الغَد وهُم يُؤدُّونَ أشرفَ الرسائلِ وأنبلَها.

آه! مـا أعزَّكُم مـعـشرَ المعـلمينَ! وما أكـرمَ رسالتَكم زُملائِي المربِّينَ!

ولَقَد سعـدتُ أثناءَ عَملي في وَزارَة المعَارف بزيَارات ميـدانيَّة لعدَد من المدارس في مُـختلِف مناطقِ المملكـةِ، وفي مدارسَ أخـرَى مـصـريةٍ،

وأَردنية، وكويتية، وإماراتية، وبحرينية، ويابانية، وإنجليزية، وفرنسية، وأسبانية.

وكَم كنتُ سعيداً بتلك الجَولات، حيث رأيتُ أنواعاً مختلفةً، وأجناسًا متعددةً!

ولقد أيقنتُ أن التعليمَ كُلٌّ مُتماسكٌ، وأجزاءٌ مترابطةٌ، ولا يمكنُ العنايةُ بهذَا الجزء وتَرْك ذاك، إنه كجسم الإنسان ينمو بتكامُل، فلا تنمو رِجلٌ دونَ أخرى، ولا تكبرُ هذه الأذُنُ وتبقى الثانيةُ، ولا تتَّسعُ هذه العينُ وتتأخرُ أختُها.

وذلكم التعليمُ كي يتطوَّرَ وينمو نُمواً

طبيعياً، لا بد من العناية بالمبنَى، والمعلِّم، والكِتاب، والمكتبة، والوسيلة، والمختَبَر، والملعب، والمسرح، وسائرِ المقوِّماتِ التعليميةِ.

يقولُ الرئيسُ (بوش) في تقرير استراتيجية أمريكا التربوية لعام ٢٠٠٠م: إن (فاتورةَ) التعليم ارتفعَتْ في أمريكا من عام ١٩٨١م إلى عام ١٩٩١م بنسبة ٣٣٪، ولم يرتفع الجانبُ الكيفيُّ، وتساءَلَ عَن الأسبَاب: لماذَا؟ وكيفَ؟ وعجبَ كيفَ تفوَّقَ الطلابُ الألمانُ واليابانيون على الأمريكيين في اختباراتِ الرياضياتِ والعلومِ؟

وكانَ جوابُ بعض المحلِّلين والتربويين،

أنَّهم في أمـريكَا اعـتنَوا بجُـزء وتركُوا أجـزاءَ، اهتمُّوا بالمباني والتجهيزات، وتركُوا المعلمَ الذي هوَ رأسُ العمليةِ التعليميةِ.

إنَّه في زياراتِنـا لمخـتلفِ المدارسِ العـالميـةِ، رأينا صـورًا جمـيلةً متنوعـةً، ومشـاهدَ عظيمـةً متعـدِّدةً، ولقد وَدِدنا أن تكونَ في بلادِنا العزيزةِ أمثالُ تلك النماذجِ.

ففي بريـطانيا نهضـةٌ تعليمـيةٌ قادمـةٌ، لديهم عنايةٌ بكلِّ الأجزاء، بالمعلِّم، والمقرَّر، والوَسائلِ، والمكتبةِ، والمُختَبَرِ، وتقويمِ العمليةِ التعليميةِ.

حتَّى أن هذا التقـويمَ أسَّسوا له هيئـةً كُبرى،

o b e i k a n d l . c o m

وعرَفنا أن فيها أكثرَ من ٦٠٠ موظفٍ، وأنَّها مرتبطةٌ بالبرلمان، وتقومُ بزيارات ميدانية للمدارس، وتُقوِّمُ نشاطَ المدارسِ، وتُقدِّمُ تقاريرَها الواحدَ إثرَ الآخَرِ.

وعرَفنا أنهم يختبرون المعلِّمين اختبارات دوريَّة، ويدفعُونهم إلى المَزيد من البرامج التدريبية والقراءات العلمية والتربوية، وشاهَدْنا أثرَ ذلك في تلك المدارس التي زُرْناها؛ ووجَدْنا الطالبَ يناقشُ زميلَه في هَذا المَوضوع، والآخرَ يقرأُ مع جارِه تلك القصةَ، والمعلِّمُ بينَهم يُوجِّهُ ويُساعدُ.

وأبصَرنَا التعليمَ وهُو يُؤدَّى بصورةٍ جماعيةٍ،

obeikandl.com

وبحَالة مُتفاعلة بينَ الطلاب أنفسهم، ومعَ أساتذتهم، ورأيْنا فصولاً دُمجت، وفيها أكثرُ من معلم، والطلابَ على شكْل مجموعات متحلِّقة، يتناقشون، ويتحاوَرون، والمعلم يتجولُ بينَهم، ويوجِّهُ هذا، ويساعدُ ذاك.

وفي اليابان شاهدْنا الطلابَ والمعلِّمين وما بينَهم من وُدٍّ واحترامٍ وتقديرٍ وانسجامٍ.

إن المعلِّمَ هُناك يرعَى طلابَه رعايةَ المُزارع لشجرته، والأب لابنه، فقطفُوا ثِمارَ الجهدِ، وجنَوا أزاهيرَ الغَرسِ.

وفي الفُصول وجدنْا الوسائلَ التعليميةَ

obeikandl.com

والكتبَ المسـاندةَ، وحـتى المناشِـف التي يُنظِّفُ بهَا الطُّلابُ الفصولَ والممراتِ.

وعـجبْنا من أولئكَ المـعلِّمينَ، وكيفَ كـانُوا قدوةً لطلابهم، ينظفون مـعَهم، ويأكلون بينَهم، ويلعبونَ مع هذا وذاك!

إنه أداءٌ بانسـجامٍ، وعَطاءٌ بإخلاصٍ، وتـربيةٌ واحترامٌ، وتكاملٌ واهتمامٌ.

وكَم سرتّْنا تلك المراكزُ التدريبيةُ التي رأيْنَاها في اليابان؛ فقد كانَت صورةً للمدارس وما فيها من تجـهيـزات أذهلتْنا، إن فـيـها أدواتِ نجـارة، ومـعاملَ حـدادةٍ، وأجهـزةَ تقَنِيـةٍ، ومخـتـبـراتٍ

للعلوم، وورشاً للميكانيكا، وأخرى للإلكترونيات.

ويلزمُ على كل معلّمٍ أن يأتيَ ليتدرَّبَ بصفة دورية، فلا يغيبُ عن هذه المراكزِ أكثرَ من خمسِ سنواتٍ.

إنهم أنفقوا على التعليم، وأيقنوا بجَدْواه، وبذلُوا في التربية، وجزموا بنتائجِها، وصنعوا شعباً، صارَ ثروةً تبزُّ الثرواتِ، وتسبقُ الكنوزَ، وتهزأُ بالبنوكِ.

إن التعليمَ استثمارٌ، ولكنه بطيءُ الأجَل، وهُو كالنخلة، يجب لها الصبرُ واليُسْرُ، وإذا

obeikandl.com

أعطتْ صارت كلَّ عامٍ تقدِّمُ رُطباً جَنِيّا، ولكنها تريدُ مزارعاً، وماءً، وأسمدةً، ورعايةً مستمرةً.

وإنَّ في الميدان صوراً يجبُ الإشادةُ بها، ويلزمُ معرفتُها، وعن طريقِ التقويمِ والزِّياراتِ نعرفُهم، وننقلُ تجاربَهم، ونشجِّعُ إبداعَهم، ونطوِّرُ أداءَهم.

قالُوا لنا في اليابان: إننا نبحثُ عن أمهَر المعلِّمين، فنجعلُه أستاذاً في مراكزِ التدريبِ يعرضُ خبرتَه، ويدرِّبُ زملاءَه.

ولقَد تذكرتُ ذلك المعلمَ الذي وجدتُه في إحدَى المدارس، وتمنَّيتُ أن يكونَ أستاذاً في

المراكـزِ التـدريبـيةِ، الـتي أتمنَّى أن أراها في كلِّ مدينةٍ من وطني العزيزِ.

ذلك المعـلمَ الذي دخلَ الفــصلَ، ووجــدَ صورةً كُبْرى لأنفـه قد رسـمَها أحـدُ الطلاب، وكانتْ صـورةً مضحكةً، وخصـوصاً أنَّ المعلمَ كـبيـرُ الأنفِ، وقـد انتظرَ الطلابُ، أسـتـاذَهم بفارغِ الصبرِ، وترقَّبوا غضبَه وانزعاجَه.

ولكن المعـلمَ حينَ دخلَ الفــصلَ، وشــاهدَ الصــورةَ ابتسمَ وقـالَ: إنني أُهنِّئُ الطالبَ الذي رسمَ أنفي، إنَّه مـوهوبٌ، وله مسـتـقبلٌ ليـصبحَ رسـامـاً (للـكاريكاتيـر) في إحــدى الصـحفِ المشهورةِ.

obeikandl.com

لقد كانَ المعلمُ ناضجاً حليماً، ومربِّياً حصيفاً، تقبلَ مزحَ الطلاب، وعبَثَهم، ولَم ينتصرْ لذاته، ولَم يبحثْ عَن الطَّالب، بَل شجَّعَه، وأشادَ برَسمِه، وأحسبُه قد ربَّاه بهذه المعاملةِ اللطيفةِ.

إن البحوثَ المستمرةَ، والدراساتِ المتواصلةَ تُعرِّفُنا بهذا المعلم، وتجعلُنا نُقوِّمُ هذا المنهجَ وذلك المربِّيَ.

وإنِّي أعجبُ حينَ أرَى شركةَ (يالوباك) النرويجيةَ المتخصصةَ في مجال التغليف والتعليبِ تُخصصُ من دخلِها السنويِّ أكثرَ من خمسة وعشرين مليون دولار، للبحث

والتطوير. في حين أسمعُ مَن يقولُ: ما لَكم وللبحثِ؟! وما هي جَدْواه؟!

بل أقفُ احتراماً لتلك المراكز البحثيَّة التي وجدْناها في تلك الدُّول المتقدِّمة، ويكفي أن نعلمَ أن اليابانَ فرَّغَتْ للبحثِ العلميِّ وحدَه أكثرَ من ثمانمائةِ ألفِ موظفٍ.

هذه ذكرياتٌ أبوحُ بها.. لك أخي القارئ لعلك تستفيدُ منها ذاتَ يومٍ.

obeikandl.com

٤- وَفْدَ نجْران

خرجتُ من مكتَبي في وَزارَة المَعارف إلى صَالة استقبَال المُراجعينَ في يَوم من الأيَّام، وفي تلكَ الصَّالة وجدتُ مجموعةً من الـمُراجعينَ، وبينَهم أبٌ مَعَه أربعةٌ من أبنَائه الصِّغار؛ هَذا في الصَّفِّ الثَّالث الابتدائيِّ، وذاكَ في الصَّفِّ الخَامس الابتدائيِّ، والثَّالثُ في الصَّفِّ الأوَّلِ المتوسِّط، والرابعُ في الأوَّل الثانويِّ.

وتحدَّثَ الأبُ بكَلام بَليغ، وقالَ حَديثاً فصيحاً، شكَا فيه مدرسةَ ابْنه الأكبَر، ولامَ مُديرَ المدرَسة والمعلِّمين، وأنَّهم كادُوا لابْنه، وعنَّفوا ولدَه، وجرحُوا مُهجتَه، وأنَّه راجعَهم فزجَرُوه،

ورجَاهم فنهَرُوه، ورمَوا لَه ملفّ ابْنه، وتوسَّلَ إلَيهم، ولكنَّهم أصرُّوا إلاّ أنْ يغادرَ ابنُه المدرسةَ.

وتساءلتُ لماذَا أحضرَ أبناءَه الباقينَ؟! ومَا علاقَتُهم بالقضيَّة؟ فهَؤلاء في مدارسَ أخرَى، فكيفَ عطَّل دراستَهم وأوقفَ تعليمَهم؟! قالَ: لقَد ضاقَتْ عليَّ نجرانُ علَى سعَتها، وسَئمْتُها وركبتُ سيارَتي برفقَة عَائلَتي، وجِئنا للرِّياض نريدُ مقابلةَ وَزير المَعارف، أو وكيلَ الوَزارة ننشُد عندَهما حَلاً للمُشكلة، ونطلبُ منهُم إنهاءً للقضيَّة. وتحدَّثَ ابنُه الأصغرُ، وقالَ مبتسماً: نحنُ معَ أَبينا وَفدُ نجرانَ.

وقَد عجبتُ من حَماقة هَذا الأَب، وتسرُّعِ

هَذا الرَّجل، وأفـهَمـتُـه أنَّ في نجرانَ مـديراً للتَّعليم، لو راجعَه لحلَّ المشكلةَ، ولَو زارَه لأنهَى القضيةَ، ثُم قلتُ: لماذَا كانَت المشكلةُ لهَذا الابْن دونَ بقـيَّـة أوْلادكَ؟! كُن أيُّـهـا الأبُ عَـوناً للمَـدرَسة، وكُنْ صَـديقـاً للمعلِّمينَ، وكُنْ أخًـا لأولئكَ الرِّجـال الذيـنَ يسـهـرونَ لأجْل ابْنك، ويشْـقَـونَ لأجْل وَلَـدك، ولعلَّك ـ يَـا أخي ـ تطاولتَ عليَهم فحمقُوا، ولعلَّك قسوتَ فثَارُوا، ولعلكَ عنَّفت فلامُوا.

قـالَ وقَـد هدأتْ حـالُه: نعَـمْ واللَّه، إنَّ ابْني أخذَ دَرْساً، وإنِّي تعلَّمتُ مَنهَجاً، وأنَا في البدَاية صـدّقتُ ولَدي، وغـضـبتُ لغَـضـبه، وهدَّدتُ وأوعـدْتُ، وكانَ مـا كـانَ؛ وأرجوكَ أن توجِّـهَ

المدرسةَ لقبُوله، وتشفعَ لدَيهم لقبُول اعتذَاري.

وعندَ ذلكَ حرَّكتُ الهاتفَ، وكلمتُ مدير المدرسَة، ورجوتُه أن يغفرَ خطأَهم، وأنْ يعفوَ عَن زلَّتهم؛ فهُوَ مُرَبٍّ وموجهٌ. وكانَ كمَا توقَّعتُ؛ فالطالبُ يتغيَّبُ، وعندَه خشونةٌ، ولدَيه قسوةٌ، يتطاوَلُ على معلِّميه، ويُؤذي زملاءَه، ولمَّا راجعَهم الأبُ لَم يصدِّقْ قَولَهم ولامَهم فلامُوه، وزجرَهم فزجَرُوه.

وهدأتُ من حَال مُدير المدرَسة، وكتبتُ لَه علَى خطَاب الأَب النصَّ التَّالي: إلى أَخي، مُدير المدرَسة، وإلَى زَميلي الُمربِّي الفَاضل، هذَا الأبُ جاءَ إلَى الرِّياض يطلبُ حَلاً، فوجَّهته أنَّ الحلَّ عندَ مُدير المدرَسة، وأنَّ الرأيَ لدَى الإخْوةِ

المعلِّمينَ في مَدرسة ابْنه، فأرجُو ـ أخي الكَريم ـ أنْ تقبَلوا شفاعَتي، وأنْ لا تُؤاخذُوا المسكينَ علَى خَطئه؛ فأنتُم رجالُ التَّربية، وأنتُم أبناءُ التَّعليم، تحمَّلُوا وتجلَّدوا، فرسالتُكم ساميةٌ، ووظيفتُكم عظيمةٌ، لا تُؤاخذُوا الجاهلَ، ولا تنتَصروا لذَاتكم، ولا تجعلُوا الطالبَ ووليَّ أمْره نداً لَكم. وفَّقَكم اللهُ وأعانَكم. ولكَ ولزُمَلائكَ في المدرَسة خالصُ تحيَّاتي وتَقديري.

ثُم كلَّمتُ مُديرَ التَّعليم بنَجرانَ، وأفهَمتُه مَا حصلَ، وتفاهمتُ معَه علَى تَكليف موجِّه يقومُ بزيارَة المدرَسة، وتَسويَة الأمْر، ومُعالجَة هَذه المشكلَة البَسيطَة اليَسيرة، والصَّعبَة الطَّويلة؛ فنجرانُ تبعدُ عَن الرِّياض أكثرَ من ألْف كم،

وقـد تكبَّدَ هذَا الأَبُ وأبنَاؤُه مـشقَّـةً في المَجيء إلى الرِّياض، معَ أنَّ المَوضوعَ يَسيرٌ، ولا يتطلَّبُ ذلكَ الجُهد كلَّه.

obeikandl.com

٥- الأبُ الوَجل

قالَت الحكماءُ: من أدَّبَ ولدَه صَغيراً سُرَّ به كثيراً.

والمعلِّمونَ يتعاملونَ معَ الإنسَان منذُ الطُّفولة، ويسايروَن فترَات عُمره، ويرقبونَ تطورَه ونُضجَه، وتمامَه وكمَالَه، وتتكوَّنُ لَهم علاقاتٌ حَميمةٌ معَ الآبَاء والأبنَاء، وتُصبحُ لعَدد منهُم دالَّة علَى هَذا الطَّالب وذلكَ الفَتى؛ فهُم يخاطبونَ عقلَه ويناجُونَ فؤادَه، ويقضُونَ معَه ردحاً من الزَّمن. وكثيرةٌ هيَ الصداَقاتُ التي تنشأُ بينَ الطُّلاب ومعلِّميهم، وإنِّي أعرفُ عَدداً من المعلِّمينَ أجهَدوا ذواتَهم في إصْلاح

هَذا الطَّالب، وتَقويم ذاكَ الفَتى، وقلقُوا على جنُوح هذَا، وأسفُوا علَى شَقاء ذاكَ، وصارُوا يتزاورُونَ معَ الطُّلاب، ويصحبُونَهم في رحْلات خلويَّة، وفي الإجَازات الرَّسمية.

obeikandl.com

وهَذه العلاقاتُ بينَ الطُّلاب والمعلِّمينَ واجبٌ تعضيدُها، وحتمٌ تَقويتُها، وهيَ موجودةٌ كذلكَ عندَ الشُّعوب الأخرَى. جاءَ في كتَاب التَّربيَة والتحدِّي (التجربة اليابانية) لميري هوايت: أنَّ المعلمَ اليابانيَّ علَى الرَّغم من حُدوث تغيُّرات في المجتمَع اليابانيٍّ وأيديولوجيَّاته التي قد تمس قليلاً نزعَات التَّضحية وإنكَار الذَّات، إلا أنَّ بعضَ القيَم

والتَّقـاليد الماضيَـة ما زالَ لها رسـوخُها، فـيزورُ المعلمُ اليابانيُّ تـلاميذَه في بيُـوتهم مرةً في السَّنة على الأقلِّ، وهذَا جـزءٌ من اعـتقَـاد تربويٍّ، بأنَّ المدرسَ يفـهـمُ تلمـيذَه بشَـكل أفضلَ إذَا عـرفَ أسرتَه، وحياتَه العائليةَ، كمَا أنَّ التلاميذَ يزورُونَ معلِّـميهم في بيُـوتهم، وكذلك مَنْ درَّسُـوا لَهم من قبلُ، وخصوصاً في المُناسبَات، وأنَّه كَثيراً مَا يصطحبُ المعلِّمونَ طُلابَهم في إجازَات قَصيرة.

وتَروي المؤلِّـفـةُ عن أحَـد المعلِّمينَ حـكايةً مؤثِّرةً. يقـولُ ذلكَ المعلمُ إنَّه اصطحبَ سـتَّةً من الطُّـلاب في إحـدَى الـعُطلات، وأَّن الألفـةَ والمحـبةَ بلغَـتْ ذورتَها، حـتَّى أنَّ المعلمَ فـوجئَ

بأحَـــد الطُّلاب يـطرقُ بابَـه ذاتَ ليلَةٍ ـ وقَــــد انتصفَت ـ ولماَّ فتح َالأستاذُ البابَ للطَّارق سمعهَ يقـولُ وفـي عـينيَـــه براءةُ الطُّفـولة إنِّـي جـائعٌ يـاأستاذُ.

ويـغلـبُ عـلى ظَـنِّـي أنَّ هَذه الـرابـطةَ بـينَ المعلِّـمينَ والطُّلاب تتــفـاوتُ بينَ مـــخــتَلف الشُّــعوب، وتتفـاوتُ قوةً وضـعفـاً بينَ المعلِّمين أنفُـــســهم، وإنِّي مـن خـلال عَــملي في وَزارة المعَــارف كنتُ أباركُ تلكَ الـروابطَ، وإنْ كنتُ أعلمُ أنَّ لكلِّ عَــمل سلبيَّـاته، ولـكلِّ تصــرُّف مسَاوئه، ولكلِّ مـجَـال أخطاءَه، ولكنَّ العبـرةَ بالنتـيجَة، والأمـور ينظَرُ إليهَـا بالأغلَب والأعمِّ وليسَ بالحَالات الفرديَّة.

ولهَذا فإنِّي أباركُ لأولئكَ المعلِّمينَ أعمالَهم الخيّرةَ، وأُعضِّدُ جهودَهم المباركَةَ، وأُهنِّئهم بنشَاطهم الذاتيِّ، ويسرُّني نبلُ الهدَف وسموُّ العمَل.

وإنِّي أتذكَّرُ أنَّه ذاتَ يَوم وأنَا في إدَارة التَّعليم بالرِّياض زارَني أحدُ المعلِّمين، وشكَا أمرَ طَالب يتمرَّدُ علَى وَالده، وذكرَ أنَّه يتطاوَلُ علَى أَبيه في القَول والعَمل، وأنَّه يحاولُ إصلاحَه، ويبذلُ جُهداً لتَقويمه، وذكرَ أنَّه صارَتْ لهذَا الطَّالب مشكلةٌ معَ المدرسَة، وقَد رُفعَت قضيتُه لإدَارة التَّعليم، وربَّما راجَعني والدُ الفَتي وتمنَّى أنْ أساهمَ في حلِّ المشكلَة.

ولقَـد أطـرَيتُ ذلكَ المعلـمَ، ودعـوْتُ لَه، وهمَـمْتُ بتَقـبـيل رَأسه؛ فـهُـو جَديرٌ بالكَرامَـة وأهلٌ للرِّعاية.

وبعدَ أسبوع أبـلغَني مديرُ مكتَبي أنَّ لَديه أباً معَ ابنه، يريدُ المقـابلةَ، ويتـبعُ مـعامـلةً موجـودةً للعَـرض، وعلمـتُ أنَّ هذَا الأبَ وابنَه هُـمـا اللَّذَان حدَّثني عنهُما ذلكَ المعلمُ.

ولهَذا أذنتُ لهُما بالدُّخول، ولكن راعَني أنَّ الابنَ يسـبقُ أبَاه فـي الخُطَى، وسـاءَني أنَّ الأبَ يسـيرُ خلـفَ ابنه، وآلَمني مَظهَـرُ ذلكَ الطَّالب؛ فقد أسدلَ شعرَه، وفتحَ جيبَه، وعجبتُ من ذلكَ المشهَد المُؤْلم.

وبادرتُ ذلكَ الابنَ العاقَّ فأمطَرْتُه بسَيل من التَّقْريع والتَّأنيب، وخاطَبتُه: أينَ التربيةُ؟! وأينَ التعليمُ؟! وأينَ مدرَستُه؟! وأينَ أساتذتُه؟! وأينَ حقُّ الأبوَّة؟! وأينَ الإحسانُ الَّذي أمَرَ به ربُّ العبَاد ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

وأفهمتُه أنَّه من نتَاج المدَارس، وأنَّ المدارسَ تربِّي وتعلِّمُ، والتربيةُ والتَّعليمُ وَجهَان لعُملة واحدَة، ومُتلازمَان تلاُزَم العَين لأخْتها، وأنَّه لا غنَى للإنسَان عنَهُما؛ لأنَّهما كالمَاء والهوَاء.

وناجيتُ مشاعرَه، وحرَّكتُ عواطفَه، وقلتُ لَه: أينَ الأدبُ؟! وأينَ الخلُق؟! كيفَ تتقدَّمُ

على أبيكَ؟! ألَم تعلَمْ حقوقَ الوَالدَين؟! ألَم تقرَأ قولَه تعالَى: ﴿فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾.

ثُم كيفَ تَرضَى بمَظهَرك هَذا الذي يُوحي بمخبَرك؟! هَلاَّ حلقتَ رأسَك، وسترتَ جسمَك، وأخذتَ وقارَكَ، وكنتَ قُرَّةَ عَين لأَبيك.

وعندَ ذلكَ تكلمَ الأبُ، وقالَ: بنَيَّ، لقَد نبَّهتُك قبلَ المُقابَلة، ونصحتُك قبلَ الزِّيارة، وأرشدتُكَ قبلَ المراجَعَة. وكانَ الأبُ يتحدَّثُ

وهو وَجلٌ، ويتكلمُ وهُو قلقٌ، وكـأنَّه يردِّدُ قولَ الشَّاعر:

أُعلِّـمُـه الـرمـــايــةَ كلَّ يَــومٍ
فلمَّـا اشـتــدَّ سـاعـدُه رمَـاني
وكَم علَّمـتُـه نظمَ القَــوافي
فلمَّــا قـالَ قـافــيـةً هجَــاني

ولقَـد هالتْني نـظراتُ الطَّالب لأَبيـه، وشـدّةُ حَـمْلَقَتـه في وَجه وَالده. وأحـسبُ لسَانَ حَـاله يتوعَّدُ ويتـهدَّدُ، وكأنَّه يقولُ في نَفـسه: اسكتْ، الويلُ لَك، إذا خَـرجْنا فَلي مـعَك شـأنٌ، وإذَا غادرْنا فعنْدي لكَ كـلامٌ. كيفَ تجرَّأتَ؟! ولماذَا أنبْتَ؟!

وأمـــامَ هَذَا المَوقف القَــاسي، وهَذه الحَــالة الشَّاذَّة أجلستُ الأبَ وأكرمْتُه، وهدَّأتُه ووقَّرتُه، وأمرتُ لَه بكُوب شَاي، وفنجَان قَهوة، وتماديتُ في لَوم الابْن وتَأنيبـه، ونَهيـه وزَجـره، ووَعظه وإرشَاده، ثُمَّ أمَرتُه أنْ يُقـبِّلَ رأسَ أَبيه، وأن يلثمَ كفَّ وَالده، وقَد فعَلَ الولدُ واستجابَ، ودمعَت عينُه، وأجلَستُـه، وسألتُ اللهَ أنْ يكونَ ابناً بارّا، لا وَلداً عَاقّا.

ورويتُ لَه قصةً ذكرتْها كتبُ الأدَب، من أنَّ غُلامـاً يُقالُ لَه ذَرّ، حضـرَتْه الوفاةُ، فحـضرَ أَبُوه فقـالَ وهوَ بينَ يَديه يجـودُ بنَفســه: ذرُّ، لئنْ متَّ فمَا في مَـوتكَ علينَا غضاضةٌ، ولئنْ عـشتَ فما

obeikandi.com

بنَا إلى غَير اللَّه حاجةٌ. فلمَّا ماتَ وقفَ عَلى قَبره، ثُم قالَ: اللهمَّ، إنِّي قَد غَفرتُ لذَرٍّ ما قصَّرَ فيه من وَاجب حقِّي، فاغفرْ لَه ما قصَّرَ فيه من وَاجب حقِّك. فلمَّا انصرفَ من قَبره سُئلَ: كيفَ كانتْ عِشْرَتُه معَكَ؟

فقالَ: مَا مشَى مَعي في لَيل قطّ إلا كانَ أمَامي، ولا في نَهار إلا كانَ ورَائي، ولا ارتقَى سَقفاً كنتُ تحتَه.

وقلتُ لهذَا الطَّالب: بُنَيَّ، ترفَّقْ بأبيكَ، وتعلَّمْ من هَذه القصَص، فهَذا حالُ الابْن معَ أَبيه، يَمشي أمامَه لَيلاً كَيْ يَقيَه هوَامَّ اللَّيل وأخطَارَه، ويسيرُ خلفَه نَهاراً؛ إكرَاماً لَه

وإجْـلالاً، ولا يصـعَدُ سَـقْـفـاً كانَ والدُه تحـتَـه تَعظيماً لَه وتَقديراً.

فـهلْ تفـعلُ يا وَلَدي قَـليـلاً من ذلكَ؟ أمَلي ورَجائي.

وقَد أنهيتُ مشكلتَهم. وأرجُو أنْ يكونَ ذلكَ الطالبُ قَد ثابَ لرُشْده، وصارَ قرَّةَ عَينٍ لأَبيه.

وهاتفتُ مـديرَ مَدرسَـتـه، ورجَوتُه أنْ يبـذلَ جُهْـداً في متابَعَـته وإصْـلاحه وتَقْويمه، وكـتبتُ رسـالةَ شُكر وتَقـدير لأَخـي، ذلكَ المعـلِّم، ورجـوتُ مُـديرَ تلكَ المدرَسـة أنْ يُطـريَه بينَ زُمَلائه، وأنْ ينقـلَ لبقيَّـة المعلِّمينَ وافرَ احـترامي لذلكَ المعلِّم، وفيضَ مشاعري لذلكَ المربِّي.